

## ورقة «نختار الحياة» ورهان الحاضر: معضلة الماضي والولادة العسيرة للأنسنة

محمد البشير رازقي

«بين سيل من الشائعات التي سرت كان ثمة شائعات سمعها وأنكرها القنصل الفرنسي في بيروت... مفادها أنّ قنصلية فرنسا شرّعت حراك المسيحيين وشجعتهم عليه» (أسامة المقدسي، ص ٢٢١).

عانت سياسات الإصلاح من تناقضات داخلية تمثلت في انفتاح وعي الأهالي على الشأن السياسي من ناحية، وخوف الطبقات التقليدية من فقدانها لجزء من مصالحها ونفوذها من ناحية أخرى. ولهذا، كان قمع الانتفاضة على يد فؤاد باشا «يرمي إلى إخراس السكّان... إبعاد التابع عن السياسة مرّةً وإلى الأبد وإعادة ترسيخ ما اخترق من خطوط التراتبية بتخليص معنى أوروبّا والتنظيمات من الفهم الشعبي» (أسامة المقدسي، ص ٢٤٤)؛ و«الجهال الذين سيطروا على السياسة منذ عهد قريب قد أمكن إسكاتهم أخيراً، وأنّ ضرباً من المدنية بين النخب قد أمكنت استعادته... وهكذا أعيدت عقارب الساعة إلى الوراء... كان على الأهالي أن يتعلّموا فتح أعينهم من جديد على جبل لبنان هم فيه عبيد لإرادة السلطان» (أسامة المقدسي، ص ٢٢٩). ويُعتبر توجّس الأهالي، وخصوصاً المنتفضين، من الإصلاحات من أهم أسباب الاضطرابات التي عرفتها بلاد الشام بدءاً بالسنة ١٨٥٠، وذلك تأثراً بالزعماء «المتطرفين المعارضين للإصلاحات في اسطنبول»، إلى جانب تخوّف السكّان ممّا يمكن أن تُسفر عنه الإصلاحات من «منافسة البضائع الأجنبية» لموارد رزقهم. فقد انخفض عدد الأنوال القطنية في مدينة دمشق من أربعة آلاف نول في أواخر أربعينات القرن التاسع عشر إلى ١٦٦٦ نول في أواخر الخمسينات ليصل إلى ٨٥٣ نولاً في العام ١٨٦٠ (عبد الله حنا، ٢٠١٧).

قمنا، في عمل سابق، بدراسة تحوّل التمثلات الثقافية في البلاد التونسية من القرن التاسع عشر إلى اليوم (محمد البشير رازقي، ٢٠٢١)، حيث تبين لنا الدور المهم الذي قام

مثّل الوجود المسيحيّ في «الشرق الأوسط» محور دراسات أكاديمية عديدة (سليم هاني منصور، ٢٠٠٤). لم تُهمل الورقة التي نحن في صدها أهميّة توظيف العلوم الإنسانيّة لفهم «أوضاع المسيحيين» ولا الواقع الجيوسياسي (ورقة «نختار الحياة»، فقرة ٢). بالمقابل، لم تُعطِ الورقة الاهتمام الكافي لمسألة «المعضلة» التاريخية التي عانى منها الشرق الأوسط عموماً منذ منتصف القرن التاسع عشر، وهذا ما نحاول طرحه بشدّة في هذا البحث. لا يمكن فهم أوضاع المسيحيين في الشرق الأوسط وتناولها اليوم من دون فهم القرن التاسع عشر. ونسعى في هذه الورقة البحثية إلى المساهمة في تفكيك «الانسداد» التاريخي المميّز لتعامل المجتمعات العربية مع تنوّعاتها الدينية واللغوية والإثنية والجندرية.

### هواجس الماضي والانسداد التاريخي

شهد الشرق إبان ستينات القرن التاسع عشر تنافساً فرنساً إنجليزياً عثمانياً رهيباً. فقد تشابكت، في هذا المكان، سياسات الإصلاح العثماني والبرامج الاستعمارية الأوروبية والأنشطة التبشيرية والصراعات الدبلوماسية القنصلية، إلى جانب الإسهام والرهانات والرغبات المحليّة (أسامة المقدسي، ٢٠٠٥، ص ٢٦٠). ضمن هذا الإطار، وقعت مذابح العام ١٨٦٠ في جبل لبنان، والاضطرابات في حلب حيث «سرت في صيف عام ١٨٦٠ رسائل مجهولة المصدر داخل متّحد المسلمين في المدينة (حلب) تدعو الشبان منهم إلى الثورة على المسيحيين والانقضاض عليهم بقيادة مسلمي دمشق» (إدهم إدم، ٢٠٠٤، ص ٢١٦). وانتهزت الدولة العثمانية هذه المذابح «لإظهار محاسن عدالة الإمبراطورية الحديثة والتزامها الإصلاحات والمساواة بين جميع الرعايا» (أسامة المقدسي، ص ٢٦٢). كما استغلّ القناصل الأوروبيون هذه الفرصة لتكيز نفوذهم، فمن دونهم «لا يمكن تصوّر أيّ حرب وتالياً أيّ سلام» (أسامة المقدسي، ص ٢٨٥). ومن

العلاقة العضوية بين مصالح الفاعلين السياسيّة وممارسات أئنة اللغة والدين. فالمنافع السياسيّة تؤسّس لتجاهل «المساواة في القيمة الأخلاقيّة بين الناس». كذلك لاحظ الباحث تفاقم «التناقضات» الاجتماعيّة بدءاً بالنصف الثاني من القرن التاسع عشر «خلال فترة ما يُسمّى بالتنظيمات»، فقد تشابك التأسيس العثمانيّ لـ «نظام الملة» مع بروز مبدأ القوميّة الخاضع لمعايير اللغة والعرق والجغرافيا، الأمر الذي أدّى إلى «تسييس» المجتمعات وترسيخ الطائفيّة (كارستن فيلاند، ٢٠٠٧، ٤٢-٦٥)، وذلك من دون نسيان اعتماد أصحاب المصالح والنفوذ على الصور النمطيّة (stereotypes) والوصم الاجتماعيّ (social stigma)، حيث يصبح الاختلاف عيباً والتنوع «كفراً» و«فتنة». تتمحور كلّ هذه الرهانات على المنفعة السياسيّة والاقتصاديّة، وتحتاج هذه المطامع إلى شرعنة وإلى حامل إيديولوجي يُستحضر لهذا الاختلاف.

تضافرت، إذًا، منذ منتصف القرن التاسع عشر مؤسّسة الدولة القوميّة ذات السيادة مع الاستعمار والمبدأ الإمبراطوريّ للحكم ذي الخلفيّة الدينيّة (العثمانيّة) على شرعنة تقسيم سكّان المشرق استناداً إلى الدين أو الطائفة أو العرق، أي تمّت مأسسة التقسيمات العرقية والدينيّة وصولاً إلى توظيفها في الصراعات السياسيّة والسعي إلى حيازة شبكات المصالح والنفوذ.

### الحاضر ورهاناته: سُبُل الأُنسنة

لم تُخفِ الورقة التي نحن في صدها اهتمامها بتوظيف «التنوع» بوصفه «نموذجاً حضاريّاً» (فقرة ٧). كما انتهت إلى إمكان توظيف الاختلاف لتأسيس سياسات «فرّق تسد» (فقرة ٨). في المقابل، نلاحظ أنّ الورقة قفزت على مرحلة تأسيسيّة لتوظيف التنوع بشكل خاطئ، أي منتصف القرن التاسع عشر، ولم تنتبه إلى المتغيّرات الأساسيّة التي ساهمت في تحويل التنوع من معطى إيجابيٍّ إلى معضلة، وهي متغيّرات أئنة السياسة وتسييس الإثنيات عبر بروز مؤسّسة الدولة القوميّة ذات السيادة (-sovereign nation)

به عدد من المتغيّرات، وأهمّها بروز الطبقة الوسطى في البلاد التونسيّة، والانفتاح الحضاريّ للبلاد التونسيّة وعامل «الأزمة» ورهان «المنافسة» وعامل «المناصفة». هذه المتغيّرات الأساسيّة تخلّلتها متغيّرات أخرى ليس بالضرورة أن يكون منشؤها البلاد التونسيّة، مثل بروز العولمة وما تشتمل عليه من تأثيرات اقتصاديّة وثقافيّة واجتماعيّة. كما أوضح عالم الاجتماع رشيد جرموني أنّ مجموعة من العوامل، مثل «تأثير القيم العولميّة» و«التوجّهات الديمقراطيّة الحديثة» و«ارتفاع الرأسمال الثقافيّ»، ولا سيّما انتشار التعليم و«تراجع دور المؤسّسات التقليديّة» مثل الزوايا والمساجد والأسرة، ساهمت في تأسيس مجموعة من التحوّلات على مستوى الممارسات الثقافيّة. وتتوزّع هذه التحوّلات إلى أربعة أنواع: أولاً: «قيم كانت سائدة وما زالت سائدة في المجتمع ولكن شكلها تغيّر»، ثانياً: «بروز قيم جديدة عوّضت قيماً قديمة»، ثالثاً: «موت قيم قديمة من دون أن يتمّ تعويضها بقيم أخرى جديدة».

رابعاً: «ظهور قيم جديدة لم تكن معروفة» (رشيد جرموني، ٢٠١٩). فتغيّر الظرفيّات وتحوّلات رهانات الفاعلين الاجتماعيّين السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة يساهم كلّها في المحافظة على التمثّلات والممارسات كما هي، أو تُعدّل «لثلاثم المؤسّسات الجديدة»، أو يجري اختراع ممارسات مبتكرة «لأغراض جديدة تماماً» (أوموت أوزكيرميل، ٢٠١٣، ص ٩). ولهذا نلاحظ أنّ القاسم المشترك بين البلاد التونسيّة والشرق الأوسط هو متغيّر الأزمة والمنافسة. فقد مثّل الوجود الأجنبيّ (عثمانيّ وأوروبي) والتنافس على الهيمنة السبب الأساسيّ لأزمة الهوية و«أئنة» السياسات وإعطائها تعريفاً دينياً منذ القرن التاسع عشر. ولهذا مثلت مسألة «تسييس» الإثنيات والأديان وأئنة السياسات وسيلةً واستراتيجياً ناجعة لإعادة اختلاق التمثّلات الإثنيّة والدينيّة، ولكن بأطماع سياسيّة.

أكد جورج بلاندييه (Georges Balandier, ١٩٧١, p. ٣٩) «أنّ ديناميّة الخارج تستطيع أن تُحوّل وأن تُغيّر بعمق ديناميّة الدّاخل». وقد بيّن كارستن فيلاند (Carsten Wieland)

تسبب به فهم خاطئ لمؤسسة الدولة ذات السيادة، وهي مؤسسة تحولت سريعاً إلى معطى أبوي يعتمد على احتكار كامل لكل سلطة ورأي ومبدأ. تحالفت هذه المؤسسة، أولاً، مع الاستعمار أواخر القرن التاسع عشر ومع مطلع القرن العشرين، ثم تحالفت مع «الاستعمار الجديد» (فقرة ٨)، بعبارة ورقة «نختار الحياة»، أي العولمة وتداعياتها.

قدّمت الورقة عدداً من الحلول لتجاوز هذا الانسداد التاريخي، مثل استخدام وسائل التواصل الحديثة من أجل «تكثيف التواصل الانساني» (فقرة ١٧)، والمراهنة على مبدأ «المواطنة» وعنصر «الشباب» (فقرة ٢٠-٢٣). وهنا يكمن جزء مهم من الإضافات التي نروم تقديمها في هذا العمل. هل يمكن أن نضيف شيئاً إلى ورقة «نختار الحياة»؟

يُعتبر التنوع الثقافي، حسب منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (UNESCO)، ضرورة حيوية للجنس البشري، باعتباره «تراثاً مشتركاً للإنسانية» (الإعلان العالمي بشأن التنوع الثقافي: الموقع الإلكتروني للأمم المتحدة). أنظر قائمة المراجع). ولا يمنع هذا التنوع الثقافي الخصوصية الثقافية، هذه الخصوصية التي تركز عليها أيضاً الذات والجماعة لصقل تجربتها الذاتية. إذًا، نجد هنا تقابلاً بين «الأنوية» و«الغيرية»، وبين الخصوصية والكونية، بين «الأنا/نحن» و«هو/هي/هم». يتحدث حسن رشيق عن أن المحيط السوسيو-ثقافي «هو بالضرورة محيط معقد وغير متجانس. ونحن ندركه بُنيةً من الاحتمالات أكثر مما ندركه نسقاً من السمات وخرّاناً أو جدولاً من الحلول المختلفة غير المتجانسة، بل والمتناقضة. فالطقوس والمعتقدات واللباقة والفقهاء والقداوسة والسوق والعائلة والسياسة هي عدد من الظرفيات المختلفة، بقدر ما هي متشابهة في الوقت نفسه» (حسن رشيق، ٢٠١٨، ص ٣٦٩). كما طرح المفكر الهندي سونيل خيلناني (Sunil Khilnani) إشكالية المرور بالهند إلى بر الأمان الاجتماعي في ظلّ التنوع الإثني واللغوي والديني و«الطبقي» الذي ميّز تاريخ البلد وحاضره. الحلّ الوحيد، حسب رأيه، هو «الحرية»

(state) المتحالفة مع الاستعمار. هذا ما عبّرت عنه الورقة بعبارة «الحدثة المجهضة» (ص ١٠). وقد انتهت الورقة إلى انعكاس هذه الرهانات على الحاضر عبر بروز متغيّر العولمة والاستعمار الجديد حيث تمّت إعادة إنتاج العصبية الطائفية والمذهبية والتعصب الديني (فقرة ٨).

انتبهنا، في عمل سابق لنا، إلى العلاقة العضوية بين المفكرين «المسيحيين» والنهضة العربية (محمد البشير رازقي، ٢٠٢٠).

وهذا ما ركّزت عليه الورقة أيضاً، إذ «اضطلع المفكرون المسيحيون بدور ريادي في النهضة العربية» (فقرة ١٣).

لاحظنا، في عملنا، أن مسيحيي الشرق كان لهم دور ريادي في بروز أهم أسس الفكر العلمي في العالم العربي. وقد تبلور هذا الفكر بفضل انتشار المطابع والمدارس، وبخاصة الصحافة، التي اضطلعت بدور محوري في نشر الثقافة والمذاهب الفكرية في تلك الفترة التاريخية، وذلك من دون أن تغفل الدور المهم الذي قام به مفهوم «الرحلة»، ولا سيما تدوينها في ما بعد، في نشر الفكر الغربي. والدور الطاعي الذي مارسه مسيحيو الشرق في هذا الإطار يرجع أساساً إلى السياسة العثمانية التي لم تكن، في نظرهم، عادلة مع جميع سكان السلطنة. من هنا يبرز السبب الرئيسي الذي حثّ المفكرين المسيحيين على التركيز على مفهومي «الأرض» و«اللغة»، لكونهما أبرز القواسم المشتركة التي تجمع بين كل سكان العالم العربي. هكذا نشأت مجموعة من المفاهيم المعرفية، وأبرزها «العلمانية»، والتي كان هدفها الأساسي فصل المجال الديني عن الحيّز العام المشترك بين جميع سكان العالم العربي.

أناقسم الرأي مع الورقة في إشارتها إلى أن «المشروع السياسي المنبثق من النهضة لم يُؤت ثماره المرجوة» (فقرة ١٤). وهنا تبرز إحدى الأفكار المركزية لمساهمتنا. عانى الشرق الأوسط، منذ منتصف القرن التاسع عشر، انسداداً تاريخياً

و«الديمقراطية»، حيث تُحمى الأحمال والأموال والمواطنة والحق في الاختلاف الهويّاتي (سونيل خيلناني، ٢٠٠٩، الخاتمة).

يمكن القول إنّ الإطار النظريّ لثلاثية جندر/طبقة/عرق يفتح لنا آفاقاً تفسيريةً مهمّةً، حتّى إنّها ضرورية، لفهم الظواهر الاجتماعية المعقّدة، وبخاصّة في ظلّ وجودنا في «عالم جديد لم يتبلور بعد» (فقرة ٥٣). والفرضية التي نطرحها كإضافة إلى ورقة «نختار الحياة» هي أهميّة المراهنة على مبدأ النضال الجندريّ من ناحية، والاعتماد على أفكار السياسات الخضراء من ناحية أخرى. والحق أنّ الورقة أشارت عرضاً إلى أهميّة المُعطى «الإيكولوجي» (فقرة ٢٦-٢٨).

لكنّها لم تتعمّق بالشكل الكافي في فكر «الخضر» ومرتكزاته الإنسانيّة. يعتمد العقد الاجتماعيّ الجديد (ص ٣١) الذي نحتاج إلى وجوده، حسب رأينا، على زاويتي نظر لا مندوحة عنهما. فالفكر الجندريّ، من جهة، لا يحيل فقط إلى علاقة المرأة بالرجل، بل يُشكّك في كلّ تصنيف تحقيريّ أو تفضيليّ للذوات البشريّة بالنظر إلى معطى الطبقة والجندر والعرق. هذه الثلاثية التي أسست للانسداد التاريخيّ المُتبلور في أواسط القرن التاسع عشر، كما أشرنا إليه سابقاً. من جهة أخرى، إنّ فكر «الخضر» والسياسات الخضراء لا تهتمّ بالطبيعة فقط، بل تنظر إلى الإنسان باعتباره كائناً يحتاج إلى العناية، وهو معرضٌ للهلاك بسبب رباعية الفقر والحرب والمرض والجهل.

تتشابك السياسات الخضراء مع الفكر الجندريّ عضويّاً عبر نقد سلبيات الدولة القوميّة ذات السيادة، وبخاصّة حلفائها اليوم، أي العولمة وذراعها الرأسمالية والاستعمار الجديد. وهي مؤسّسات مُضرة بالطبيعة والانسان. في هذا الإطار، يمكن أن نستعيض عن عبارة «الدولة القوميّة ذات السيادة» بعبارة «الدولة المدنيّة» (فقرة ٥٨) أو مفهوم الإنسانيّة (ص ٣٧).

## المراجع

- إدهم إدم/ دانيال غوفمان/ بروس ماسترز، المدينة العثمانيّة بين الشرق والغرب: حلب، إزمير واسطنبول، تعريب: رُلى ذبيان، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٤
- أسامة المقدسيّ، ثقافة الطائفية: الطائفة والتاريخ والعنف في لبنان القرن التاسع عشر تحت الحكم العثمانيّ، ترجمة: نائر ديب، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٥
- أوموت أوزكريملي، نظريّات القوميّة: مقدّمة نقدية، ترجمة: معين الإمام، المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ٢٠١٣
- إيريك هوبزباوم، عصر التطرّفات: القرن العشرين الوجيز (١٩١٤-١٩٩١)، ترجمة: فايز الصيّاغ، المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت، ٢٠١١
- حسن رشيق، القريب والبعيد: قرن من الأنثروبولوجيا بالمغرب، المركز الثقافي للكتاب، ٢٠١٨
- رشيد جرموني، «القيم الخلقية والدينيّة وإشكاليّات الإطلاق والنسبية في المجال العالميّ»، التفاهم (مسقط)، ٦٤، ٢٠١٩، ص ١٩٩-٢٣٤
- رؤوف سعد أبو جابر، الوجود المسيحيّ في القدس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ٢٠٠٤
- سليم هاني منصور، البعد المسيحيّ للسياسة الروسيّة في المشرق العربيّ، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ٢٠٢١
- سونيل خيلناني، فكرة الهند، ترجمة: مجيب الرحمان، المركز الثقافيّ الهنديّ/ كلمة، أبو ظبي، ٢٠٠٩
- عبد الله حتّاء، «الطائفية والطبقية والوطنية في تاريخ سورية الحديث والمعاصر»، ضمن: المسألة الطائفية وصناعة الأقليات في الوطن العربيّ (مجموعة مؤلّفين)، المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة/بيروت، ٢٠١٧، ص ٧٤٧-٧٩٨
- كارستن فيلاند، الدولة القوميّة خلافاً لإرادتها: تسييس الاتنيّات وأتنة السياسة. البوسنة، الهند، باكستان،

Lebanon and Damascus in 1860, London: Centre for

Lebanese Studies and I.B, Tauris, 1994

Ridha Ben Amor, Les formes élémentaires du lien so-  
cial en Tunisie: d'entraide à la reconnaissance, L'Har-

mattan/IRMC, Paris, 2011

مواقع الكترونية:

<https://www.ohchr.org/ar/instruments-mechanisms/>

[instruments/universal-declaration-cultural-diversity](https://www.ohchr.org/ar/instruments-mechanisms/instruments/universal-declaration-cultural-diversity)

ترجمة: محمد جديد، دار المدى للثقافة والنشر، العراق،

٢٠٠٧

محمد البشير رازقي، «العلمانيون العرب في القرن ١٩:

نافذة على الحداثة»، مجلة ليكسوس، المغرب، ٣٤، ٢٠٢٠،

ص ٦٠-٦٩

التراث الثقافي بمدينة تونس وتحولاته بين منتصف القرن

التاسع عشر والفترة الراهنة، دار زهراء الشرق، مصر، ٢٠٢١

Georges Balandier, Sens et Puissance, P.U.F, Paris, 1971

Leila Fawaz, An Occasion for War: Civil Conflict in